الباب الأول

معنى التربية

حين يتساءل المرء منا عن معنى التربية تتوارد على ذهنه طائفة كبيرة من الذكريات القديمة الباهتة عن الرحى التى كنا نمر بها فى غدواتنا وروحاتنا ، بل إن الذكريات لتتوارد عن أيام كنا نغادر المنزل صباحاً حاملين كتبنا ، وزادنا ، فنذكر قرع الناقوس ، واصطفافنا فى طوابير ، ودخولنا حجرات الدراسة ، ونذكر مدرسينا والمواد التى كنا نتلقاها على أيديهم ، وقطع المحفوظات التى كنا نحفظها عن ظهر قلب ، والواجبات اليومية التى كانت تعهد إلينا ، والامتحانات ونتائجها . . . وعلى الجملة نجد أن أول ما يتبادر إلى الذهن حين نسمع كلمة التربية هو كل ما يختص بالمدرسة والتعليم .

بيد أننا إذا نظرنا إلى التربية بهذا المنظار وعلى هذا المنوال لن نصل إلى معنى صحيح ، أو فهم عميق لمعناها لأن كل هذه الأمور لا تمس لب التربية أو جوهرها وإنما تمس مظهرها الخارجى . ونحن نسعى دائماً وراء الجوهر لا العرض . بيد أننا حين نحاول اكتشاف مبادئ التربية الصحيحة ووضع أسسها — وهى محاولة ضرورية للوصول إلى لب التربية وفهم كنهها — يجب أن ننبذ كل الأفكار العتيقة الخاطئة ، الأمر الذى يتيح لنا أن ننظر إلى التربية نظرة كاملة شاملة جامعة مانعة . وهذا كان لزاماً علينا أن نبتعد عن الدقائق والتفاصيل ، وبذلك نستطيع أن نراها واضحة جلية . ومثلنا فى هذا مثل من يسعى إلى مشاهدة معالم قرية ، فهو لا يتحسس كل جزء من القرية على حدة ، وإنما يبحث عن نقطة تتيح له رؤية معالمها دفعة واحدة ، وتبين له الصلة بين أجزائها المختلفة . والمرء حين يشاهد القرية من علو يشعر بنوع من الوحشة والغرابة لأن الأشياء المألوفة تبدو وكأنها غير مألوفة ، بل تبدو وكأنها ليست فى وضعها الطبيعى . . . هذا ما ستشعر به حين تبدأ تلاوة الفصول الأولى من هذا الكتاب . . . بل لعلك لن تتمالك فتقول : إن ما يذكر هنا ليس له ثمة علاقة بالتربية : ولكنك على أى

حال ستجد فيما بعد أن هذه الكلمة ضرورية ؛ لأن الشخص الذى يتمعن فى قطعة أرض من عَلٍ يعلم تمام العلم بأن هذه النظرة العامة التى يلقيها على الأرض ، وهذه الفكرة الشاملة التى يجمعها عنها قبيل بدء بحثه ، خليقة بأن تنير له السبيل ، وأن تساعده على كشف الهدف ولهذا فنحن نطمئن القارئ بأنه ليس هناك أجدر ولا أفضل — لكى نفهم معنى التربية فهماً ثاقباً — من أن ننظر إليها نظرة كاملة شاملة .

ولكن ما هى أفضل نقطة تتيح لنا رؤية هذا الميدان بسهولة ؟

قد نجد جواباً لهذا السؤال فى تلك العبارة الموجزة التى تقول : « إن التربية هى المؤثرات المختلفة التى توجه وتسيطر على حياة الفرد » . فالتربية إذن توجيه للحياة أو تشكيل لطريقة معيشتنا . وقد لا تجد هذا القول حديثاً مبتكراً أو جديداً رائعاً ، بل لعلك تجده قديماً عادياً مألوفاً ، ولكن على أى حال من المستحسن — بل من الضرورى — تذكر هذه العبارة لأنها ؛ مثل كل الأمور العادية المألوفة — تدور على ألسنة الناس دون أن تبدو فى أعمالهم — وهى فوق ذلك وقبل ذلك أفضل وأوجز تعريف للتربية .

والقول بأن التربية هى توجيه أو تشكيل للحياة الإنسانية ليس — كما ذكرنا — قولا مبتكراً . فقد نادى به أساتذة وفلاسفة من جميع العصور الغابرة . نادى به القدماء فلخصوه فى العبارة اللاتينية الموجزة « إنما الحياة مدرسة » وصرح به المحدثون فى أمريكا فجعلوه عنواناً لأفضل وأشهر مدارسهم الخاصة . ففى مقدمة بنود هذه المدارس الخاصة تجد أن الهدف الأساسى هو « إعداد التلاميذ للمهمة الكبرى وهى الحياة حياة سعيدة » وإذن فهى لا ترمى إلى حشو عقول التلاميذ بالمواد الدراسية بل إلى خلق جيل من الرجال والنساء الصالحين .

بيد أنه منذ سنين قلائل مضت ، أضفى على هذه الفكرة رونق جديد ، وحياة جديدة فأضحى لها معنى عميق . ولعل هذا يرجع إلى نهضة العلوم البيولوجية « الحيوية » فهذه العلوم تدرس فى مقدمة ما تدرس ، الحياة وشروطها ، ومن هنا يبدو الاتصال الوثيق بين التربية وهذه العلوم . فكلما ازددنا فهماً لحياتنا الاقتصادية ، ازددنا فهماً لطبيعة التربية ووظيفتها . فإذا كان العلم ينبئنا بشروط الحياة ، وتطورها ، فإننا نستطيع أن نتبين — أكثر من أى عصر مضى — كيف

تؤثر التربية على هذه الحياة ، وهذا الرأى الذى اعتنقه كثير من المربين العظام فى العصور السابقة أصبح يسمى اليوم بالاتجاه البيولوجى فى التربية . وسنحاول فى الصفحات التالية أن نوضح وندلل على قيمة هذا الاتجاه . ويجدر بنا أن نلاحظ أن هذه الفكرة هى فى الواقع خلاصة قولنا : بأن التربية ما هى إلا وسيلة أو عملية تتحدد بها طرق معيشتنا .

والآن نتساءل : ما هى طبيعة عملية الحياة ؟

لعلك تجد بعض الغموض والتعميم فى الزعم بأن وظيفة التربية هى تحديد كيف نعيش . ولعلك على حق فى هذا . لأن كلمة « الحياة » كلمة غامضة ، وعامة ولا يمكن تحديدها فهى قد تشمل وتعنى ناحية معينة من نواحى النشاط الإنسانى ، وقد تشمل وتعنى فى نفس الوقت نواحى عدة من النشاط الإنسانى . ولما كانت الوسيلة التى تبين طريقة معيشتنا لا يمكن تحديدها ، فإن هذا يفسر لنا السبب فى أن كثيراً من الفلاسفة والمربين قد وافقوا على هذا الرأى نظريا وتجاهلوه عمليا . لأن القول بأنها توجيه للحياة لم يؤد إلى اقتراحات عملية مجدية من حيث إدارة المدارس أو وضع البرامج الدراسية المختلفة لطرق التدريس بحيث يستطيع المدرس أن يتبعه بدقة ويميزه بسهولة عن غيره من البرامج ، ولكن الاتجاه البيولوجى الحديث يظهر لنا القيمة العظمى لعالم الحياة فى التربية . فهو يمدنا بتفاصيل وافية عن طبيعة الحياة والشروط اللازمة لتكييف هذه الحياة مع البيئة . فالصفة الظاهرة ، والميزة البارزة فى علم الحياة يمكن تلخيصها فى كلمة واحدة هى : « التكييف أو التأقلم » . فالكائن الحى يتميز عن غيره من الجماد بقدرته على التكييف مع ما يحيط به أو التأقلم بالبيئة التى يعيش فيها ، ولعلنا نحسن إذا ضربنا لك بعض الأمثلة المحسوسة حتى يبدو لك الأمر واضحاً جليا.

ولنبدأ بأقل الكائنات الحية شأناً ، وأعنى به ذلك الحيوان المائى الدنىء المعروف باسم « Paramecium » فلو وضعنا قطرة من حامض الكبريتيك المخفف فى المياه التى يعيش فيها هذا الكائن الحى فإننا نجده حين يقترب من الحافة الخارجية للقطرة أنه يتوقف ثم لا يلبث أن يغير اتجاهه مبتعداً عن هذه النقطة . وكلما كررنا هذه العملية حصلنا على نفس النتائج . والآن قارن هذا بما يحدث حين تصب بضع قطرات من هذا الحامض نفسه على قطعة من المرمر . فهنا يبدو

جليا أنه من خطل الرأى أن تزعم بأن المرمر يتكيف أو يتأقلم بما حوله من الحامض أو أن تزعم بأنه يستطيع إدراك هذا الموقف فيحاول التخلص منه . ولكن كل ما يحدث هو تفاعل كيماوى ينتج عنه بعض التغيرات — وإذا ذهبنا أبعد من ذلك فقارنا تأثير الضوء على شجرة ، وتأثيره على صورة فوتوغرافية نجد أنه إذا كانت الشجرة تنمو فى أجمة كثيفة ، وأن الضوء لا يصل إلا إلى أطرافها فإن هذا يؤثر فى طريقة نموها ، فتجدها طويلة قليلة الأفرع فى وسطها ، ونادرة الأفرع فى أسفلها ، ونستطيع أن تتبين الفارق العظيم الذى يحدثه الضوء فى مظهرها حين تقارنها بمثيلتها التى تنمو فى العراء وتتمتع بأشعة الشمس . وهكذا تستطيع أن تقول فى عبارة أخرى : إنه بينما عملت الشجرة على الملاءمة بين دوافعها الداخلية وبين البيئة المحيطة بها تجد الصورة الفوتوغرافية على النقيض من ذلك لا يحدث لها شىء من هذا القبيل لأنها تستقبل الأثر الذى يخلفه سقوط الضوء عليها استقبالا أوتوماتيكياً سلبياً : ولذلك كان هناك تكيّف وتشكل مع البيئة . وكان هنا تبلد وعدم تأثر بها — وسنمضى فنضرب لك أمثلة عديدة لندلك على صحة ما نقول . فقد زعموا أن بعض الحيوانات الثديية كانت فى عصر جيولوجى سحيق تنمو إلى حد مخيف ، ولكن أحداً لم يزعم أن الصخور نمت أو كبرت لأن فى نمو الحيوان تحقيقاً لغاية ضرورية وهى القدرة على الحياة ، والتغلب على مشاكل البيئة ولكن ليس فى نمو الصخور — إن صح هذا التعبير — أى غاية لعدم وجود أى دافع باطنى — وحين تجف إحدى العيون المائية فى أقاليم وسط أفريقيا يصير الطمى كتلة صلبة ، ولكن هذه الكتلة من الطمى لا تختلف عن غيرها من الطمى سواء أكانت متماسكة أم متفتتة ، لينة أم صلبة . والحيوانات تهجر مواطنها فتجوب الآفاق إلى أن تستقر فى جهة أخرى تلائمها ثم هى لا تذعن بعد ذلك لشروط هذه البيئة الجديدة المعدلة وإنما تحاول أن تجعلها أكثر ملاءمة لمعيشتها . وإذا أنت غرست دبوساً فى جماد فهذه عملية آلية لا يترتب عليها أى شىء آخر ، ولكنك إذا غرست هذا الدبوس فى ذراعى فإنى أقفز ألماً ، وقد أسب أو أعاتب ثم أقذف بالدبوس بعيداً عن ذراعى وأبحث عن ضمادة ، ففى حالة ذراعى تجد ملاءمة بين الحافز الداخلى وبين الظروف البيئية المحيطة ، بينما لا تجد فى حالة الجماد شيئاً من هذا الضرب ، وهكذا نستطيع أن نتبين الفارق بين التكيف

والتبلد ، بين الكائن الحى وبين الجماد .

ويعتقد علماء البيولوجيا — وهم الذين يعنون بدراسة مظاهر الحياة — أن هدف الكائن الحى فى الحياة هو القدرة التامة على الملاءمة بين الدوافع الداخلية والظروف الخارجية . وهذا ما نسميه بالتكيف . وهكذا يتحدد لنا معنى التربية تحديداً صريحاً لا لبس فيه ولا غموض . الأمر الذى يجعل معنى كلمة الحياة واضحاً جلياً — ونعنى به : تلك القدرة التى لدى الكائن الحى للملاءمة بين الدوافع النفسية ، والظروف البيئية — وحين يبطل وجود هذا الدافع الداخلى تبطل مهمة الحياة . بل حين لا تتيسر الملاءمة بين الدوافع الداخلية وبين الظروف الخارجية تصبح الحياة مهددة بالزوال ؛ فهدف التربية إذن هو تشكيل أو تحديد هذه الملاءمة بين الكائن الحى برغباته وأهدافه وبين العالم الخارجى بعقباته ومشاكله — وبعبارة أخرى . إن هدف التربية — كعملية ملاءمة — هو تكييف الكائن الحى مع مشاكل البيئة . وتجد مصداق ذلك فى نمو أجسام الزواحف الكبرى وفى الدروع القوية لأجسامها وفى جلود الفيلة السميكة وقوائمها الضخمة وقواطعها الحادة وفى مخالب النمر القوية وفى كل أنواع الملاءمة التى استطاعتها ضروب الحيوانات والنباتات المختلفة . وقد استطاع الإنسان أن يجارى هذه الكائنات الحية فى التغلب على مصاعب البيئة بل أن يتفوق عليها جميعاً ، وأن يحقق هذا بواسطة التربية فقد أتاحت له التربية الفرصة لمنازلة الطبيعة والانتصار عليها وتحقيق رغباته وأهدافه أكثر من أى كائن حى آخر ظهر على وجه البسيطة . وبذلك ظفر الإنسان لنفسه بمركز محترم حقق له سبل السعادة والرفاهية ، الأمر الذى لم يتحقق لكائن آخر .

والآن تتساءل : ما هى المعانى الضمنية التى تدخل فى نطاق نظرتنا إلى التربية؟

من الطبيعى أن يهدف هذا الكتاب إلى إظهار تلك الروابط المؤثرة فى التربية من هذه الوجهة البيولوجية : ولكن لكى نزيد قيمة هذا المبدأ وضوحاً يجدر بنا أن نقف قليلا لنتبين مدى عمق وقوة هذا المبدأ الذى ننادى به .

أولا — مما لا ريب فيه أنه كلما قلت أو تحددت قدرة الكائن الحى على التشكل مع البيئة تزعزعت واضطربت حياته ، ولذلك لم تحل القوة الهائلة والأسلحة الفتاكة التى كانت لدى بعض الزواحف ولدى بعض الحيوانات

الثديية فى بعض العصور السحيقة دون انقراض هذه الكائنات ، ويبدو كما لو كانت هذه الحيوانات قد نحت نحو التخصص فى الملاءمة مع البيئة . ولذلك حين تبدلت شروط الحياة فى تلك البيئة التى استطاعت التمشى معها بما وهبت من مميزات جسدية — وجدت تلك الحيوانات نفسها عاجزة عن مواجهة وتذليل مشاكل هذه الحالة الجديدة ، وبذلك كتب عليها الانقراض والزوال ، ومثل هذا يمكن أن يقال عن الإنسان سواء أكان فرداً أم جماعة — فمن السهل أن نلقن طفلا حرفة واحدة معينة ، وأن نبين له ضروب النشاط والمهارة التى سيحتاجها ، وأن نلاحظ إجادته لها ، وأن نخلق منه شخصاً ماهراً فى مهنته ، حاذقاً لصنعته ولكن إذا فعلنا هذا فإننا نرتكب جرماً أثيما لأنه من المحتمل أن تختفى هذه الحرفة التى تعلمها فى المدة التى يشب فيها هذا الطفل ، ومن ثم تصير قدرته على مواجهة الحياة أو بيئته محدودة جداً ، وبذلك يضطر الإنسان أن يسلك إحدى سبيلين .

(١) إما أن يموت جوعاً . (٢) أو يعتمد فى حياته على التسول والإحسان .

وإذا سرنا على هذا النمط ، وأخذ كل فرد فى المجتمع فى أداء عمل معين ، واصطبغ بصبغة معينة ثابتة فإن المجتمع لا يلبث حين لا تتفق هذه الأعمال وهذه الميول فى ظروف الحياة الخارجية — لا يلبث أن يفضى هذا إلى فنائه — وأوضح مثال لذلك هو تلك النزعة العسكرية التى تجدها فى بيئة صناعية . فحين تركز المدارس انتباهها ، وتعمل قصارى جهدها — كما تعمل فى أغلب الأحيان — على خلق وطنية متعصبة كل التعصب ، متطرفة كل التطرف — فإنما تعمل بذلك على إيجاد تكييف محدود ضيق ، قد يجعل من المتعذر علينا مواجهة الحقيقة الأمر الذى يؤدى بنا فى النهاية إلى الدمار ، ولذلك فإن النتيجة التى نريد الوصول إليها ، والتى لن ننفك نبثها ونظهرها واضحة جلية فى هذا الكتاب هى أن أحسن ملاءمة وأفضل تكيف هو الذى يكون خالياً من كل قيد أو تحديد .

ثانياً — وثانى الصلات فى نظرنا هو أن التربية فى أصلها وفى طبيعتها يجب أن تبدأ بالغرض الذى يرمى إليه الشخص الذى نربيه . ومما يجدر ذكره دائماً أن الفرق الأساسى بين الكائن الحى وبين الجماد هو فى وجود دافع داخلى أو حافز نفسانى ، وأن التكييف هو ملاءمة بين هذا الدافع الداخلى وبين الظروف

الخارجية ، وأنه إذا انعدم الدافع الداخلى أو الهدف التلقائى فلن يكون هناك تكييف أو حياة أو تربية لأن التربية تبدأ وتظهر حين يرغب الإنسان فى أمر ويواجه الصعاب للظفر به .

وهذا كله مسلم به فى مدارسنا الحديثة وهو أيضاً عنصر أساسى فى مدارس رياض الأطفال ، إلى جانب أنه يكمن وراء بعض المنظمات فى الكليات والجامعات . ونستطيع أن نذكر دون مبالغة أن أعظم المربين وأفضلهم ، وأعمق الأساتذة وأحسنهم يعتنقون هذا الرأى وأنهم يحاولون دائماً أن يجعلوا منه أمراً عملياً ، ولهذا يزداد هذا المبدأ سطوة وتأثيراً على النفوس عاماً بعد عام ، غير أن هذا لا يجب أن يعمينا عن أن الأغلبية الساحقة تتجاهله وتهمله أكثر مما تطبقه وتمارسه : فما زال هناك فئة كبيرة من المدرسين الذين يعيشون فى الظلام يعتقدون — أو يعملون كما لو كانوا يعتقدون — أن التربية ما هى إلا أداء أمر كتسميع درس أو حفظ شىء لا يهواه الطفل دون أكتراث لنشاطه أو هدفه . وإذن فأول مبدأ هام نستخلصه من الاتجاه البيولوجى فى التربية هو ألا يكون الهدف من تدريسنا حشو عقول التلاميذ ، وإنما خلق القدرة على التكيف المبنى على وجود دافع داخلى

ثالثاً — ولكنا حين نقول إن التكيف يتضمن وجود دافع نفسى لا نذكر كل الحقيقة ولعل المثال الآتى يوضح ذلك :

نشأت فتاة تسكن أحد أحياء إحدى المدن الكبرى فى ظروف عائلية سيئة ، فلم يهتم بها أبواها ، ولم يحيطاها بعنايتهما ، وكانت الصلة التى تربطهما بها لا تتعدى الطعام أحياناً ، والعقاب أحياناً أخرى ، وكانت فتاة خاملة تميل إلى الكسل رغم شهرة المدرسة التى كانت ملتحقة بها وحسن إدارتها وجودة نتائجها ، ولم تلبث الفتاة أن اندمجت مع بعض صديقاتها من ذوات السيرة السيئة . وهكذا أصبحت قبل أن تتم العاشرة وقد أجادت سرقة المحلات التجارية ، وما إن بلغت الثانية عشرة حتى كانت قد فقدت عرضها وفى السادسة عشرة أرسلت إلى إصلاحية الأحداث .

وإذا تساءلنا عن السبب فى ذلك ، ونقبنا عن أهداف الفتاة الداخلية ، ودوافعها الباطنية inner purposes وجدنا أنها لا تختلف عن الدوافع الباطنية لأى شخص آخر : إذ أنها لم تكن مصابة بأى مرض وراثى — ولم تكن ميولها ونزعاتها لتختلف عن ميول ونزعات أى شخص آخر — ولكن البيئة التى نشأت فيها كانت

على قسط كبير من الانحلال ولذلك فإن تكيفها مع البيئة كان تكيفاً فاسداً . وإنها فى ذلك لتشبه عوداً أخضر نبت ثم انثنى ثم جف ثم ابيض من قلة الضوء ، ورداءة التربة — فالفتاة نشأت — كمجموعة من القدرات النفسية الفطرية — لم تكن تختلف عن أى شخص آخر ، ولكن البيئة التى ترعرعت فيها خلقت منها لصاً وعاهراً لأن هذا هو التكيّف الطبيعى الملائم لبيئتها الفاسدة .

ومن هنا نرى أنه رغماً عن أن التربية تعنى أول ما تعنى بالدافع النفسى للإنسان الذى نريد تثقيفه فإنها لا تهمل ناحية أخرى على جانب عظيم من الأهمية وهى ضرورة خلق بيئة مطهرة ، وضرورة المحافظة على هذه البيئة من أدران الرذيلة — وهنا يأتى دور المدرسة فالاتجاه البيولوجى يظهر لنا ما يجب أن تكون عليه طبيعة عمل المدرسة وموقفها ، لأن المدرسة عنصر مهم للطفل ومثلها كمثل التدفئة فى حالة نمو الوردة فى الجو البارد العاصف فهى التى تهيئ الجو الملائم للتكيف الحسن وهى التى توثق العلاقة بين الحافز الداخلى والصعاب الخارجية — بين الهدف النفسى وبين الفرصة الملائمة .

رابعاً — إن القول بأن التربية وسيلة حسنة لضمان التكيّف المطلوب بين الدوافع الداخلية والظروف الخارجية — يدعونا إلى فرصة اختيار أفضل البرامج الدراسية ، وإجراء أحسن التجارب الخارجية التى يجدر بالطالب أن يمر بها حتى تتعمق نظرته إلى الحياة ، ويزداد فهمه لها ، وتصير نظرته إليها ثاقبة نافذة ، وقد أوضح هربارت سبنسر ذلك منذ عهد بعيد فى عبارة واضحة سلسة حين تساءل : كيف نعيش ؟ : نحن لا نرمى أن نحصر هذا السؤال الذى يشغل أذهاننا ، ويتردد على ألسنتنا فى معناه المادى الضيق المحدود ، لأننا نريد معناه الواسع الأعم ؛ فالمشكلة العامة التى تواجهنا والتى يدخل فى نطاقها كل المشاكل الصغيرة الدقيقة هى مشكلة خير تطبيق لخير سلوك فى جميع الأحوال وفى جميع الظروف ، أعنى أن تتعلم كيف تربى جسدك وتنميه ، وكيف تغذى عقلك وتوسعه ، وكيف تعالج أمورك وتديرها . وكيف تنشئ عائلتك وتهذبها ، وكيف تستغل قواك إلى أقصى حد ممكن فى سبيل إسعاد نفسك وإسعاد غيرك ، وبعبارة أدق : تتعلم كيف تعيش عيشة كاملة فاضلة . ولما كانت إجادة هذا من أهم الأشياء وأمسها لحياتنا فقد كان لزاماً على التربية أن تعنى بهذا كله وأن تبثه فى نفوس

النشء وإذن فوظيفة التربية وهدفها الأساسى هو أن تهيئنا لأن نحيا حياة كاملة فاضلة . وعلى هذا يصير أفضل معيار للحكم على أى منهاج تربوى هو أن نقيسه بمقدار فشله أو تحقيقه لهذا الغرض .

وأخيراً : فهذا المبدأ التربوى يتضمن فى جوهره إشارة إلى ما يجب أن يكون عليه « رجل التربية المثالى » فالكثيرون يعتقدون أن مثل هذا الشخص لا بد أن يلم بمعلومات شتى وأن يستطيع أداء ضروب من الأعمال المختلفة ، وهم يقولون — أو على الأقل يشيرون — إلى أن الرجل المثقف تثقيفاً مثاليا هو ذلك الذى يتحدث اللغة القومية بطلاقة ، والذى وهب حسا صادقاً ، وذوقاً مرهفاً ليتذوق الموسيقى ، والأدب ، والذى يلم بالعلوم وبالتاريخ ، والذى يجيد إحدى اللغات الأجنبية قراءة ، وكتابة ، وخطابة ، والذى يحاو مجلسه لعذب حديثه وطلاقة لسانه ، وهم يأخذون فى تعداد ضروب وأمثال هذه الصفات والخصال إلى ما يقاربها ويشاكلها ، ولكن تعداد هذه الخصال يدل على خطأ فى التفكير لأن التربية ليست وسيلة للزخرفة والمباهاة وليست كالطول بالنسبة لعنق الزرافة أو كالسمعان بالنسبة لبعض الأسماك — فالتربية وسيلة من وسائل الملاءمة بين مطالب الكائن الحى ومطالب البيئة التى هى جوهر الحياة ولبها — والتربية فى معناها الحرفى هى القدرة التامة على الحياة — وفى معناها الشامل المرونة العقلية المطلقة . ولكى نبيّن لك ما نرمى إليه برجل التربية المثالى أو الرجل المثقف تثقيفاً مثاليا ونجعله محسوساً ملموساً لك — نشير إلى أننا لا نستطيع أن نعد مثل هذا الشخص متكيفاً ومتلائماً مع بيئته ما لم يكن على علم تام ومعرفة وثيقة بوسائل المحافظة على صحته ، وما لم يكن ماهراً فى حرفته ، فالمهارة فى الحرفة ، واتباع القواعد الصحيحة من الصفات البارزة فى رجل التربية المثالى ، والإلمام بهاتين الصفتين أفضل من الإلمام بكثير من الخصال التى ذكرت سابقاً . فليس من الصفات الضرورية لرجل التربية المثالى أن يكون مندمجاً فى الرفاهية أو منغمراً فى نعيمها ، إنما من الضرورى أن يكون قادراً من الوجهة البيولوجية على النمو ومستطيعاً السيطرة على الحياة بقبضته القوية .

ونحن إذ نختم هذا الفصل نرجو أن يكون فى هذه النظرة العامة الشاملة الموجزة ما يكفى للإبانة عن قيمة هذه الناحية البيولوجية حين نفحصها من الوجهة

العملية — تلك الناحية التى تعالج التربية كعملية تكيف بين حافز داخلى وحاجة خارجية وتعدها وسيلة لتحقيق حياة أفضل .

والآن نتساءل : ما الصفات البارزة فى التكيف البشرى ؟

أثبتت الإنسانية بعد صراع عنيف دام ملايين القرون أن الإنسان أفضل وأعظم أنواع الحيوانات . فلقد كافح أسلافنا فى العصر الحجرى ليعيشوا آمنين مع تلك الكائنات الضخمة التى لم تتردد فى مشاركتهم المسكن : فلم يتصف الهنود الحمر فى أمريكا بميزة تجعلهم يتفوقون على الدب أو الجاموس الوحشى . كما أن الهندوس ما زالوا فى القرى الهندية يخشون لقاء النمر ويعدونه عدوًّا شخصيا لهم لا تحسن مواجهته إلا بعد إعداد العدة لذلك . بيد أن الرجل المتحضر تمكن من بسط سلطانه التام ونفوذه الكامل على الطبيعة ، وإذا كانت أقوى الحيوانات الدنيئة ، وأذكاها قد استطاعت الإفلات من بندقية الصياد الماهر السريع . فلأن تقدم المدنية وزحفها السريع قد جنبها هذا المصير المحتوم . ولكن الحشرة والحشرة فحسب تهدد بإخصابها الدائم وهجومها الفتاك — سيطرة الإنسان الكاملة على موارد الأرض ووسائل الحياة فيها . وإذا تساءلنا عن السبب فى ذلك فإن السؤال يبدو لوضوح إجابته سؤالا وقتيا . فالظروف التى مكنت الإنسانية منذ عشرات ألوف الأعوام من السيطرة على الحياة هى نفسها الظروف التى يجب أن نتطلع إليها كوسيلة لاضطراد التقدم . وإذا أردنا أن يستمر الجنس البشرى فى ارتقاء سلم التطور الذى بدأ رقيه منذ عهد بعيد ، فيجب أن نبحث طبيعة هذه الصفة التى أتاحت التقدم للبشرية ، ونعمل على تحسين عملها ، وزيادة إنتاجها ثم نتجنب استخدامها فيما يعود بالضرر على البشرية .

وإذن ما الصفات الهامة فى التكييف البشرى ؟ وما كنه هذه القوة السحرية التى أتاحت للإنسان التغلب على مشاكل البيئة ؟ وما سر تفوقه البيولوجى؟ مما لا ريب فيه أن هذا لا يرجع إلى ضخامة كيانه أو عنف قوته أو خفة سرعته ، ومما لا ريب فيه أيضاً أنه لا يرجع إلى وجود مجموعة من الغرائز النشطة لديه ، وإنما يرجع إلى أن الإنسان يستطيع أكثر من أى كائن آخر أن يكتسب الخبرة أو يتعلم القدرة على التكييف بدلا من أن يرثها . وللتكيف المكتسب مميزات خطيرة الشأن سنذكرها ولكن يجب أن نلاحظ أننا حين نذكرها إنما نذكر شروط أى

برنامج تربوى لأنه إذا كانت التربية هى عمل ما يجب أن يعمل لتشكيل الحياة وترقيتها فقد كان لزاماً عليها أن تركز اهتمامها فى خير صفات التكييف وأفضل ميزات الحياة ، تلك الصفات التى بسطت سلطان الإنسان ، والتى إن أحسنا استعمالها فهى خليقة بأن تضاعف هذا السلطان :

أولا — يلاحظ بادئ ذى بدء أن التكيف المكتسب مرن ، وأن التكيف الموروث ثابت جامد لا يتغير : فحين يقترب موسم هجرة الطير تنطلق جماعته متخذة نفس الطريق الذى اتخذه أسلافها منذ أجيال مضت وتعبر نفس الأقطار دون أن تنتبه إلى خطر اصطيادها بالبندقية أو بأى وسيلة أخرى . وعلى النقيض من ذلك حين يعلن كشاف مقدمة السفينة خبر اقتراب جبل من جبال الثلوج فى شمال المحيط الأطلسى — يسارع ربان السفينة بتغيير اتجاهها . وحين تغير مناخ شمال أوربا فى آخر العصور الجيولوجية انقرضت ضروب عديدة من الحيوانات الدنيئة ولكن البشر ابتدعوا وسيلة أخرى مكنتهم من المعيشة فى هذه البيئة الجديدة . فهذه المرونة وهذه القدرة على تغيير طريقة أداء عمل تغييراً كاملا حين تتطلب أحوال البيئة ذلك — هى أعظم قدرة بشرية ، ولذلك فإن أى برنامج تربوى يهدف إلى الخير لا بد أن يعنى بها قبل أى شىء آخر .

ولم يكن للتخصص فى عصر من عصور تاريخ البشرية قيمة كبرى مثل عصرنا الحاضر . وهذه هى إحدى النتائج الخطيرة للتربية الحالية . فالعقيدة السائدة هى أن المدارس يجب أن تقصر جهدها على تدريب النشء على أداء أعمال معينة ، وأن أى شىء لا يهدف إلى ذلك هو ضرب من ضروب الكماليات ، إن لم يكن أمراً عديم الجدوى — ولكن هذا يخالف هدف الاتجاه البيولوجى فى التربية مخالفة صريحة فلسنا مفتقرين إلى عدد كبير من المتخصصين ، وإنما إلى عدد كبير من أولئك الذين لهم دراية عامة بكافة الأمور — تلك الدراية التى ترمى إلى تسليح الفرد بما يمكنه من مواجهة المشاكل التى تصادفه ، وتذليل الصعاب التى تواجهه فى المستقبل . فهى دراية أكثر منها دربة على عمل معين . وهذه التربية تتيح فرص النجاح فى الحياة للفرد ، لأن الإخفاق فى ناحية من النواحى لا يحول دون النجاح فى ناحية أخرى ما دامت عقلية الشخص مرنة إلى حد كاف . ويتطلب استمرار الحضارة ، وازدهارها ، وتقدم منشآتها جيلا

يستطيع التصرف فى مختلف الظروف أو يمتاز بسعة الحيلة فى تصريف مشاكل الحياة . بيد أن الدربة على عمل معين أو التخصص فى الحياة ليس بذى أثر جليل ، وأسطع برهان على ذلك هو « الديناسور » وهو أحد الزواحف الكبرى المنقرضة ، و « الماموث » ، وهو نوع من الفيلة المنقرضة أيضاً . فهما مثالان ساطعان للتخصص فى الطبيعة ونستطيع أن نجد نتيجة هذا التخصص مسطراً بين طيات الصخور .

ثانياً — يتم التكيف المكتسب فى أى وقت من حياة المرء ولذلك فإن التكيف البشرى يستمر باستمرار حياة الإنسان ، ويتصف إلى جانب ذلك بصفة التقدم والتطور .

ومن المسلم به أن الغرائز لا تبدو كلها بمجرد الولادة وإنما بعد أن تتجلى قدرة الحيوان التامة على الاستجابة الغريزية . وتكون هذه الاستجابة فى هذه الحالة نشطة إلى أبعد حدود النشاط ، ولكن هذا لا يصدق فى جميع الأحوال لأن جل الحيوانات الثديية الكبرى لها القدرة على التعلم ، وعلى هذا يمكن القول بأن الذئب الذى يبلغ من العمر سبع سنوات يكون صياداً أمهر منه حين كان عمره ثلاث سنوات وهكذا . . . ولكن مقدار التحسن أو التغير الذى يمكن أن يطرأ عليه بعد أن تتدعم فى نفسه طريقة التكيف الموروث ليس بالكبير .

بيد أن الأمر يختلف مع الإنسان اختلافاً جوهريا ، فقد كان الزعم الشائع هو أن الإنسان يجيد تعلم الأشياء حين يكون صغيراً ، وأن مقدرته على التحسن والتقدم بعد بلوغه مرحلة نضجه الأولى تقف ، ولكن يتبين لنا الآن أن هذا الزعم خاطئ ولا نصيب له من الصحة لأن الإنسان يستطيع أن يتعلم وهو فى الخامسة والعشرين أسرع من الشخص الذى فى الخامسة عشرة ، ويستطيع كذلك أن يضيف إلى معلوماته ، وأن يستمر فى التعلم طيلة حياته . أو على الأقل حتى العقد الخامس منها . وقد ذكر أحد الكتاب المشهورين النابهين أنه بدأ حياته ككاتب بعد أن تخطى الحلقة الرابعة . ونشرت إحدى المجلات الشعبية منذ فترة وجيزة قصة رجل من رجال الأعمال تدهورت أعماله وهو فى الستين من عمره فشرع فى عمل جديد لم يسبق أن زاوله . وتكلل بالتوفيق ، ولعل العالم الاجتماعى الكبير « وليام جراهام سمنر » William Graham Sumner مثال ساطع للرجل الذى كرس حياته العقلية بعد أن تخطى العقد الرابع لتعلم

لغات جديدة ، وإجادة النظريات الرياضية ، بل استطاع نشر نظرية جديدة ما زال صداها يسيطر على تفكير كثير من المعاصرين .

وليس هناك من شك فى أن القدرة على التعلم كانت أبرز خصائص الجنس البشرى فبواسطتها ظفر أسلافنا بقسط وافر من الحكمة ونفاذ البصيرة ، وأصبح هذا تراثاً بشرياً قيما ، فبينما يعجز الكلب الهرم عن تعلم بعض الحيل الجديدة يستطيع الرجل الهرم فعل ذلك بسهولة ، ولعل هذا هو أحد الأسباب التى جعلت من الإنسان كائناً سامياً متفوقاً . وتستطيع المدرسة أن تعوق المرء أو تساعده على تعلم خبرات جديدة تمكنه من الملاءمة برغم سنه . وإذا نظرنا إلى التربية نظرة محدودة واعتقدنا أن أجدى أنواع التربية تلك التى تتيح لنا فرصة الالتحاق السريع بعمل بعد تخرجنا من معاهد الدراسة — فإننا نكون بذلك قد عملنا على هدم الدعامات الكبرى التى تعتمد عليها البشرية فى تقدمها . غير أن هذه النظرة إلى التربية نظرة عقيمة وسخيفة حتى من وجهة الأثرة البحتة لأن سبل التوفيق فى الحياة وضمان استقرار المعيشة هو اكتساب خبرة أو تربية تمكن الفرد من الملاءمة المستمرة حتى أواخر حياته . فالتربية إذن تهدف إلى خدمة الفرد والجنس البشرى بالمحافظة على استمرار المرونة البشرية بتقدم العمر ، وذلك بأن تخلق فى الإنسان القدرة على استمرار التعلم .

ثالثاً — إن التكييف البشرى هو تكييف تركيبى أكثر منه تكييف سلبى . ولا يعمد الإنسان حين يرغب فى تذليل المشاكل التى تصادفه إلى تغيير نفسه وإنما يعمد إلى تغيير ظروف بيئته . وقد عرف بعضهم الإنسان فقال إنه الأداة التى تستخدم الحيوان . وفى هذا القول شىء من الصدق وإن لم يذكر صراحة — وقد نحونا فى هذا الفصل إلى الاعتقاد بأن التكيف لدى الحيوان هو إيجاد طريق للملاءمة ، وهو لدى الإنسان ابتكار طريقة الملاءمة . والإنسان فى سبيل تكيفه مع البيئة يخلق الأداة والسلاح ، ويشيد المبانى والمؤسسات الاجتماعية . فهو يأخذ المادة اللازمة لتكييفه من الطبيعة ثم يصبها فى القالب الذى يريد ، وهنا يكمن سر عظمته وقوته .

هذه الفكرة على جانب عظيم من الأهمية لأنها تؤثر على نظرتنا إلى المشاكل التربوية ، ولذلك سنبينها على وجه آخر فنذكر أنه قد يساعدنا على فهم ذلك

فهماً ثاقباً معرفة ما نعنى به من التكييف التركيبى ، فمن المعلوم أن الإنسان لا يعالج مشاكل الحياة بالإذعان لها أو بالملاءمة، وإنما بالابتداع والابتكار ، وإذا كنت شغوفاً بركوب الصعاب والانتصار على المخاطر ، فإنك لن تجد لذة فى تجنب المصاعب وإنما فى اكتشاف طريقة تحيلها إلى ظروف مواتية ، وبابتداع وسيلة جديدة للعمل قد تتطلب تغيير نفس الإنسان وبيئته أيضاً . ولهذا السبب (قدرة الإنسان على القيام بمثل هذه الأفعال) استطاع الإنسان أن يصير سيد الحياة .

ونكرر مرة أخرى أن التربية قد تعوق وقد تساعد ، وقد تكون نقمة ، وقد تكون نعمة ، فإذا عاملنا الشخص المراد تثقيفه كشخص يستقبل المعلومات التى تصب له استقبالا سلبياً أو كشخص تطبع عليه بعض العادات ، فإن هذا ينافى ما ذكرناه عن صفة التكييف الإنسانى البارزة . فالتربية الحقة المحققة للغرض الذى نهدف إليه منها لابد أن تشجع فى الفرد الاتجاه العملى أو الناحية الابتداعية . فالشخص الخالق المبتدع ، المبتكر هو الشخص الذى يكون أكثر تكيفاً مع العالم الخارجى الذى يعيش فيه ، وهو الشخص الذى حمل فى عزم منذ القدم — وسيظل كذلك حتى الأبد — مشعل تقدم الإنسانية .

رابعاً — إن التكيف المكتسب ينحو إلى إعلاء شأن الفرد و التكيف الموروث ينحو نحو إعلاء شأن الجنس ،وكثيراً ما يطلق اسم «التكيف الجنسى» على التكيف الوراثى . وهى فى الحقيقة تسمية صائبة . وتحافظ الكائنات الحية الدنيئة وخاصة — الحشرات ، والأسماك — على نوعها بتناسلها ونتاجها الوفير ، وبرغم أن كميات كبيرة من هذه الكائنات تقضى عليها أعداؤها أو تفنى فى بعض الحوادث فإن هذا ليس بالأمر الخطير لأن التكيف الجنسى على العموم وفى أغلب الأحيان يحافظ على نوع هذه الحيوانات . ومثل هذا يمكن أن يقال عن الغريزة الحيوانية لدى بعض الكائنات الراقية التى قد تضحى فى قسوة بالفرد فى سبيل المجموع . وفى كل هذه الحالات تجد الطبيعة مكشرة عن أنيابها ، قاسية على حياة الفرد معنية بحياة الجنس .

بيد أن هذه الصورة تتغير إذا انتقلنا لبحث التكيف المكتسب . فالفرد وما اكتسبه من خبرة وحكمة يصير وسيلة لرقى الجنس البشرى واستمراره على قيد الحياة . فحين يهجر قطيع من الثيران قائده المهزوم ، ويتركه ليلاقى حتفه ،

يكتسب القطيع خبرة ، ولكن حين يموت رجل ذو بصيرة ثاقبة ، وعلى حظ كبير من المعرفة ، وهو فى أتم قواه فإن هذا يعد خسارة لاتعوض للجنس البشرى.

وهذا هو السبب فى أن التربية الحقة يجب أن تعنى بالفردية ، بل يجب أن تقدسها. وهذه النقطة على جانب عظيم من الأهمية لأنها طالما دفعت كثيراً من المتحمسين لها إلى التطرف . فالفرد فى حد ذاته ، مثل بعض أرطال من المادة الحية ، كمادة البروتوبلازما ليس لها فى حد ذاتها أى قيمة ، ولكن المرء كشخص يستطيع اكتساب مرونة مستمرة فى التكيف ، وابتداعاً فى طرق الملاءمة . — له قيمة عظمى ، ولهذا كان من الواجب احترام شخصية التلميذ فى المدرسة ، لا لما هو عليه ولكن لما سيكون عليه فيما بعد ، غير أن هناك غلطة شائعة نجدها دائماً فى المدارس الحديثة الآخذة بسبل التقدم وهى الميل إلى اعتبار كل نزعة من نزعات الطفل شيئاً مقدساً ، لا لشىء سوى أنها نزعة طفل ، ونحن لا نجد لهذا تبريراً منطقيا ، بل إنا لنعدها الفردية فى أسوأ درجاتها . فلكل فرد قيمة سواء لما هو عليه من صفات عقلية أو أخلاقية أو لنفاذ بصيرته أو لما سيتصف به فى المستقبل . فالطفل وإن كان على حظ ضئيل من المعرفة إلا أنه قد يصير ذا شأن فى المستقبل .

والشىء الذى لا يعتريه الشك هو أن صفة التكيف البشرى تكسب الإنسان قيمة عظمى حتى يصبح معقد رجاء التقدم . ولكنا حين نتركه فريسة للدعاية أو للأغراض المدرسية أو لأى أنواع الاستغلال أو بعبارة أخرى حين نعده جزءاً من المجموع — فإننا ننزل به إلى مستوى أقل من مستوى الإنسان .

مراجع الباب الأول

1. — Peters : Foundation of Educational Sociology.

2. — Mursell : Principles of Education.

3. — Morrison : Basic Principles of Education.